ردمد: ٢٠٩X - ١٦٠٧

دولة الإمارات العربية المتحدة

دبي

مجلة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

إسلامية

فكرية

محكّمة

العدد التاسع عشر

ربيع الأول ١٤٢١ هـ - يونيو ٢٠٠٠م

المحتويـــــــات

● **الافتتاحية**

التحرير ١١-١٦

● **تَدَبُّرُ القُرْآنِ بَيْنَ المَنْهَجِ الصَّحِيحِ والانحِرافَاتِ المُعَاصِرَةِ**

د. عيادة بن أيوب الكبيسي ١٩-٥٨

● **مُوَازَنَةٌ فِي مَبْحَثِ (معرفة أسبابِ النُّزُولِ) بينَ الزَّرْكَشِيِّ والسُّيُوطِيِّ**

د: محب الدين عبد السبحان واعظ ٥٩-٨٩

● **تَحَمُّلُ الحديثِ وروايتُهُ من خلالِ وسائلِ التَّلَقِّي القَدِيمةِ والحَدِيثةِ**

د. صالح يوسف معتوق ٩١-١٢٢

● **حديث " لاَ تَرُدُّ يَدَ لاَمِسٍ " دراسةٌ نَقْدِيَّةٌ حديثيَّةٌ فقهيَّةٌ**

د. وليد محمد الكندري

د. مبارك سيف الهاجري ١٢٣-١٧٠

● **مَدَى سُلْطانِ الأَبِ في تَزْوِيجِ ابنَتِهِ فِي الفِقْهِ الإِسْلامِيِّ**

د. عيسى صالح العمري ١٧١-٢٠٢

● **مِنْ رُوَّادِ التَّجْدِيدِ فِي الدِّراسَاتِ التَّارِيخِيَّةِ الإِسْلامِيَّةِ**

د. سلامة محمد البلوي ٢٠٣-٢٤٩

● **التَّأليف في مَثَالِبِ العَرَبِ حتَّى نِهَايَةِ القَرْنِ الثَّالثِ الهجريِّ**

أ. أحمد محمد عبيد ٢٥١-٢٧٢

● **تَسْمِيَةُ الشَّيءِ باسْمِ الشَّيءِ إذا كانَ مِنْهُ بِسَبَبٍ وأَوزانُ الاسْمِ الثُّلاثي لابن برِّي النَّحْوِيِّ المتوفَّى سنة ٥٨٢ هـ**

تحقيق الأستاذ الدكتور/ حاتم صالح الضَّامن ٢٧٣-٢٩٣

● **فِي تاريخِ عِلْمِ الصَّرْفِ ومُصْطَلَحاتِهِ**

أ.د. مازن المبارك ٢٩٥-٣١٢

● **الوضوحُ الدَّلاليُّ في المعارفِ وأثَرُهُ في بنائِها وإعرابِها**

د.محمد رباع ٣١٣-٣٣٩

● **القَصَصُ الاجْتِمَاعِيُّ فِي شِعْرِ الزَّهَاوِيِّ**

د. أحمد السيد أحمد حجازي ٣٤١-٣٩٠

«فِي تاريخِ عِلْمِ الصَّرْفِ ومُصْطَلَحاتِهِ»

أ.د. مازن المبارك(*)

ملخص البحث

بحثٌ يُلْقي الضَّوءَ على مرحلةٍ مُبَكِّرَةٍ من تاريخِ علمِ الصَّرف ، ويربطُ نَشأَتَهُ بنشأةِ علم النَّحْوِ ، ويُدَلِّلُ على أنَّهما معاً كانا يُشَكِّلان «علم العربيَّة» .

ويُصَنِّفُ مناهجَ التَّأليفِ الصَّرْفيِّ الذي كانَ حيناً ممتزجاً بموضوعاتِ النَّحْوِ ، وحيناً آخرَ مستقلاً عنها ، ويُبَيِّنُ أنَّ من المؤلفاتِ النَّحْويَّةِ ما استوعبَ موضوعاتِ الصَّرف كلَّها ومنها - وهو ما أخذ به معظم النحاة - ما كان يضمُّ موضوعاتٍ صرفيَّةً أُلْحِقَتْ بموضوعاتِ النَّحْوِ ، ويتجنَّبُ قسمًا من الصَّرْفِ لم يَرَ النُّحَاةُ إلحاقَهُ بالنَّحْوِ فتحامَوهُ .

ويؤكِّدُ البحثُ أنَّ بواكيرَ العملِ الصَّرفيِّ كانت على يدِ رجالِ الطَّبقةِ الأولى من أصحابِ أبي الأسود الدُّؤلي ، وأنَّهُ ليس لمعاذِ الهرَّاء أثرٌ في وضعِ علْمِ الصَّرْفِ بله أن يكون واضعه، و أنَّ تلك الطَّبقةَ وضعت مصطلحاتٍ صرفيَّةً ما زالت مستعملةً إلى اليوم .

ويتناول كثيراً من مصطلحاتِ الصَّرْفِ أو التَّصْريفِ من شائعةٍ ومندثرةٍ أو مهملةٍ أو معدولٍ عنها إلى غيرِهَا

(*) أستاذ النحو والصرف ورئيس قسم اللُّغة العربيَّة بكلِّيَّةِ الدِّراساتِ الإسلاميَّةِ والعربيَّةِ بدبي.

البحث

كانت كلمةُ (العربيَّة) عندَ القُدمَاءِ تعني فيما تعنيه عِلْمَ النَّحْو، وكانَ النَّحْوُ إذ ذاك شاملاً للتَّصْريف، فلقد نقلَ الزُّبيديُّ ما رُوِيَ عن عاصم بن أبي النَّجُودِ المتوفَّى سنة ١٢٧هـ وهو قوله: «أَوَّلُ مَنْ وَضَعَ العربيَّةَ أبو الأسودِ الدُّؤلي»[١]. ونقلَ ما روي عن أبي النَّضر سالم ابن أبي أُميَّةَ المتوفَّى سنة ١٢٩هـ «من أنَّ عبدَالرَّحْمَن بن هرمز كانَ من أَوَّلِ مَنْ وَضَعَ العربيَّة»[٢]. ونقل السُّيوطيُّ أنَّ أبا عبيدةَ معمر بن المثنى المتوفَّى سنة ٢٠٩هـ قال: «أبو عمرو بن العلاء أعلمُ النَّاسِ بالقراءاتِ والعربيَّةِ وأَيَّامِ العربِ والشِّعْر»[٣].

وروى ابنُ عساكر أنَّ ابنَ سلَّام المتوفَّى سنة ٢٣٢هـ قال: «أَوَّلُ مَنْ أَسَّسَ العربيَّة، وفَتَحَ بابَها ، ونَهَجَ سبيلَهَا، ووضعَ قياسَهَا أبو الأَسْود»[٤]. وكذلك قال الزُّبيديُّ المتوفَّى سنة ٣٧٩هـ: «إنَّ أبا الأَسْوَدِ هو أَوَّلُ مَنْ أَسَّسَ العربيَّة، ونَهَجَ سبيلَهَا، ووضَعَ قياسَهَا»[٥]. وقال ابنُ فارسٍ المتوفَّى سنة ٣٩٥ هـ: «إنَّ هذينِ العِلْمَيْنِ (العربية والعروض) قد كانا قديمًا، وأتت عليهما الأيام، وقَلَّا في أيدي النَّاسِ ثمَ جَدَّدهما هذانِ الإمامان»[٦] أي: جاءَ أبو الأسودِ فَجَدَّدَ العربيَّةَ، وجاءَ الخليلُ فأحيا العروض.

وقال ابنُ النَّديم المتوفَّى نحو سنة ٤٠٠هـ: «إنَّما قَدَّمنا البَصْرِيِّينَ أَوَّلاً، لأنَّ علمَ العربيَّةِ عنهم أُخِذَ»[٧] وقال في أحدِ أخبارِه: «كانَ عبدُالرَّحمنِ بنُ هرمز أَوَّلَ مَنْ وَضَعَ العربيَّةَ»[٨]

١- طبقات النَّحْويين واللغويين ص ١٤ .

٢- المرجع السابق ص ٢٠، والفهرست ص ٥٩ .

٣- البغية : ٣٧٦ .

٤- تهذيب ابن عساكر . بدران ١٠٨/٧ .

٥- طبقات الزُّبيدي ص ١٣ (وص ٢١ ط دار المعارف) .

٦- الصَّاحبي في فقه اللغة ص ١٠ (وص ١٤ من ط مكتبة المعارف بيروت ١٤١٤هـ و ١٩٩٣م بتحقيق د. عمر فاروق الطباع).

٧-الفهرست : ٩٦ .

٨- الفهرست : ٥٩ .

وقال الأنباريُّ المتوفَّى سنة ٥٧٧هـ: «إنَّ أَوَّلَ مَنْ وَضَعَ عِلْمَ العربيَّةِ وأَسَّسَ قواعده، وَحَدَّدَ حُدُودَهُ أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»[١] وقال ياقوت المتوفَّى سنة ٦٢٦هـ في ترجمة أبي الأسود: «الأكثر على أنَّهُ أَوَّلُ مَنْ وَضَعَ العَرَبِيَّة، ونقطَ المصحف»[٢] وكثيرًا ما نقرأ في كتب التَّراجم أنَّ فلانًا كانَ بصيرًا بالعربيَّة، أو كانَ رأْسًا في العربيَّة، أو أَخَذَ العربيَّةَ عن فلان، أو تَصَدَّرَ لتدريس العربيَّة، وهم إنَّما يريدون بالعربيَّةِ في كلِّ ما سَبَقَ عِلْمَ النَّحْوِ أو قواعدَ اللغةِ في نحوِها وصرفِها.

وهكذا بقيت كلمةُ العربيَّةِ مستعملةً إلى قرونٍ متأخِّرةٍ شاملةً لعلمي النَّحْوِ والصَّرْفِ، ولعلَّ أوضحَ ما يدلُّ على أنَّ العربيَّةَ يُرادُ بها ما يصونُ اللسانَ من علمي النَّحْوِ والصَّرْف ما قاله ابنُ عصفور المتوفَّى سنة ٦٦٩هـ من أنَّ (التَّصْريف) أشرفُ شطري (العربيَّة) وأغمضُهُمَا[٣].

على أنَّ ذلك لا يعني أنَّهم لم يستعملوا كلمة (النَّحْو)، بل لقد ظهرَ مصطلحُ (النَّحْو) قديمًا أيضًا، واستعملَ إلى جانب (العربيَّة) على ألسن الذين سبق ذكرهم وعلى ألسن غيرهم من العلماء الذين تَحَدَّثُوا عن تاريخ النَّحْو أو أَلَّفُوا في تراجم الرِّجال، فأبو الطَّيبِ اللغويُّ (ت ٣٥١هـ) يقول: أَوَّلُ مَنْ رَسَمَ للنَّاسِ (النَّحْو) أبو الأسود [٤]

والزُّبيديُّ (ت ٣٧٩هـ) يقول «روي أنَّ الذي أوجبَ على أبي الأسود الوضع في النحو أنَّ ابنته...»[٥].

وابنُ النَّديم (ت نحو ٤٠٠هـ) يقول: زَعَمَ أكثرُ العلماءِ أنَّ النَّحْوَ أُخِذَ عن أبي الأسودِ. وانظر ما جاء في الفهرست (ص ٥٩ - ٦٠) عن أبي جعفر بن رستم الطَّبريِّ وكلمة (النَّحو) وكيف نشأت واستعملت منذ عهد أبي الأسود.

ولم تكن كلمةُ (التَّصْريف) مستعملةً عند القدماء على أنَّها تدلُّ على علمٍ مُسْتَقِلٍّ، لأنَّ (النَّحْو) عندهم كانَ شاملاً للصَّرْف، بل لعلَّهُ كانَ شاملاً لكلِّ ما يُقِيمُ اللسانَ ويصونُ اللغة،

١- نزهة الألباء : ١ (مصر ١٢٩٤هـ) .

٢-معجم الأدباء : ترجمة أبي الأسود الدُّؤلي .

٣-الممتع : ٢٧ .

٤- مراتب النَّحْويين : ٦ .

٥- طبقات : ١٤ (وص ٢١ ط دار المعارف) .

إذ لم تكن الأخطاءُ التي نُقِلَتْ أخبارُها عندما بدأ اللحنُ ينتشر، أخطاءً في حركاتِ الإعرابِ فقط، بل كانت أخطاءً في اللغةِ والنَّحْوِ والتَّصْريفِ[1]، وهي التي دفعت إلى الاهتمام بوضعِ القواعدِ مِمَّا يدعونا إلى الاعتقاد بأنَّ ما وضع في الصَّدْرِ الأَوَّلِ لم يكن (نحوًا) فقط، وإنما كان (عربية) تشملُ الألفاظَ بإعرابِهَا وصيَغِهَا وحروفِهَا ومخارِجِهَا وكلَّ ما يَكْفُلُ سلامتها.

ولا بدَّ أن نذكر أنَّ القدماءَ استعملوا كلمة (الصَّرف) بمعنى التَّنوين، وكانَ في كتب النَّحْوِ أبوابٌ لما يَنْصَرِفُ وما لا يَنْصَرِف، ومتى يُمْنَعُ الاسمُ من الصَّرْف. ومِمَّا يدلُّ على اهتمامِ النُّحَاةِ بهذا البابِ أَنَّكَ تَجِدُهُ بابًا واسعًا في كتاب سيبويهِ [2]، وفي المقتضب للمبرد[3]، وكتب أكثر النَّحْويينَ كالإيضاح للفارسيِّ والجمل للزَّجَّاجيِّ وغيرهما، بل إنَّ أبا إسحاقَ الزَّجَّاج المتوفَّى سنة ٣١١هـ قد أَفْرَدَ هذا الموضوعَ بكتابٍ مستقلٍّ عنوانه: «ما ينصرفُ وما لا ينصرف»[4].

وأَمَّا ما نحن بصدده مِمَّا يُسَمَّى علمَ الصَّرْفِ فقد استعملَ القدماءُ للدَّلالةِ عليه كلمة (التَّصْريف). وقد وردت كلمة (التَّصْريف) في كتاب سيبويه، وتتابعَ على استعمالها العلماءُ من بعده. وهم يعنون بالتَّصْريف تحويلَ صيغةِ الكلمة، أي: تغيير بنيتها لغرضٍ معنوي، كتغييرِ الفعلِ الماضي إلى المضارع، وتغييرِ المفردِ إلى المثنى أو الجمع، وكالتَّصْغير والنَّسب. كما يعنون بالتَّصْريف أيضًا ما يطرأُ على الألفاظ من تغييرٍ لغرضٍ لفظيٍّ كالزِّيادةِ والحذفِ والإعلالِ والقلبِ والإبدال.

ومع أنَّ التَّصْريفَ يشملُ المعنيينِ السَّابقين، فقد رأينا النَّحْويين يُضَمِّنُونَ كتبهم ما يَتَّصِلُ من التَّصْريفِ بالمعنى الأَوَّل، ولكن سيبويه أراد بالتَّصْريفِ المعنيين السَّابقين فقال: «هذا باب ما بنت العربُ من الأسماءِ والصِّفاتِ والأفعالِ غير المعتلَّة والمعتلَّة، وما قيس من المعتلِّ الذي لا يتكلَّمون به ولم يجئ في كلامهم إلاَّ نظيره من غير بابه، وهو الذي يُسَمِّيه النَّحْويونَ التَّصْريفَ والفعل»[5].

١- انظر أمثلة ذلك في البيان والتبيين ٢/٢١٢ و ٢١٩، ومراتب النَّحْويين : ٨، والمعجم العربي ١/٢٤، وفي الفهرست : ٦ .

٢- يبدأ من أول الجزء الثاني من الكتاب .

٣- يستغرقُ أكثرَ من سبعينَ صفحةً بدءًا من ص ٣٠٩ .

٤- حققته هدى محمود قراعة ، ونشر في القاهرة سنة ١٩٧١م .

٥-الكتاب : ٢/٣١٥ وط هارون ٤/٢٤٢ .

ويتضح مما ذكره النُّحَاةُ أنَّ كثيرين منهم اقتصروا من التَّصْريفِ على المعنى الثَّاني ممَّا ذكره سيبويه، والذي هو مسائلُ التَّمرين، وأغفلوا ما بنت العربُ من الأسماءِ والأفعالِ والصِّفاتِ[1].

كما يتضح لنا من نَصِّ سيبويهِ أمرانِ:

الأوَّل: أنَّ مصطلحَ (التَّصْريف) عُرِفَ واستعملَ في عصرٍ مبكِّرٍ.

والثَّاني: أنَّهُ شاملٌ لقسمي التَّصْريف[2]، أي: ما غُيِّرَ لغرضٍ معنوي، وما غُيِّرَ لغرضٍ لفظيٍّ. وقد استعملَ المتأخِّرونَ كلمةَ (الصَّرف) بمعنى (التَّصريف) وعَرَّفُوه بقولهم: «الصَّرْفُ علمٌ بأصولٍ تُعْرَفُ بها أحوالُ بِنْيةِ الكلمةِ التي ليست بإعرابٍ ولا بناء» تمييزًا للصَّرْفِ من علم النَّحْوِ الذي يُعْنَى بالإعرابِ والبناء.

موضوعاتُ علمِ الصَّرْف:

مدارُهَا في الأسماءِ المعربةِ والأفعالِ المُتَصَرِّفَة، ويتناولُ علمُ الصَّرْفِ من باب الأسماء صيغ المجرَّدِ والمزيدِ والجامد والمشتق، كما يتناولُ المصادرَ والمشتقَّاتِ كاسمِ الفاعلِ واسمِ المفعولِ والصِّفةِ المشبَّهَةِ واسمِ التَّفْضيلِ، واسمِ الزَّمانِ واسمِ المكانِ واسمِ الآلةِ، والمذكَّرِ والمؤنَّث، والمنقوص والمقصور والممدود، والمثنَّى والجمع، والتَّصْغير والنَّسب.

ويتناولُ موضوعاتٍ تشتركُ فيها الأسماءُ والأفعالُ كحروف الزِّيادة ومواضعها، والإلحاق والحذف والإعلال والإبدال والإدغام ومعاني الحروف الزَّائدة والإمالة والوقف. ويتناولُ موضوعاتٍ تختصُّ بالأفعال كتوكيد الفعل المضارع وفعل الأمر بنوني التَّوكيد الثَّقيلة والخفيفة، وإسناد أقسام الأفعال الثلاثة إلى الضَّمائر.

الميزانُ الصَّرْفيّ:

ووضعَ العلماءُ ما عرف بـ «الميزان الصَّرفي» وهو مقياسٌ لفظيٌّ صَاغُوهُ من أحرف (فعل) لوزن كلّ ما يدخل التَّصْريف من ألفاظ اللغة العربيَّة، فجعلوا الحرفَ الأَوَّلَ فاءَ الفعل، والثَّاني عينه، والثَّالث لامه.

١- انظر مثلاً شرح الشَّافية : ١/٦و٧ .

٢- انظر الممتع لابن عصفور : ١/٣١ .

والوزنُ هو اللفظُ المصوغُ من هذه الأحرف الثلاثة على هيئة الموزون في حركته وسكونه والزِّيادة عليه والحذف منه، ومن الجديرِ بالذِّكرِ أنَّ القدماءَ عَبَّروا عن «الميزان الصَّرفي» بـ«الأصل» و «المثال» و «الفعل» ففي (المنصف) يفسِّرُ ابنُ جنِّي قول المازني فيقول: «اعلمْ أنَّهُ إنَّما يريدُ بقوله (الأصل): الفاءَ والعينَ واللام... فالأُصولُ يُقَابَلُ بها في (المثال): الفاءُ والعينُ واللامُ، ويُلْفَظُ بالزَّائد بعينه لفظًا في (المثال)»[1]، ويستعملُ ابنُ جنِّي نفسه كلمة الفعل للميزان الصَّرْفي فيقول مثلا: «الحروفُ لا تُمَثَّلُ بالفعل، لأنَّها لا يُعْرَفُ لها اشتقاق.... إلاَّ أنْ تنقلَها إلى التَّسمية بها، فحينئذ يجوزُ وَزْنُها بالفعل»[2].

مَعَ تاريخ علمِ التَّصْريف:

لم يكن كلٌّ من (النَّحْو) و (التَّصْريف) علمًا مستقلاً بذاته، بل كانا علمًا واحدًا يعرف حينًا باسم (العربية) وحيناً آخر باسم (النَّحْو)، وكانت موضوعاتهما ممتزجةً أو مجتمعةً كما نراها في أَوَّلِ أثرٍ (عربي) أو (نحوي) مُسَجَّل وصلَ إلينا، وهو كتاب سيبويه. ولكن هل صحيح ما روي من أنَّ معاذ بن مسلم الهرّاء (ت ١٨٧هـ)[3] هو أَوَّلُ من وضع علم (التَّصْريف) أو تَحَدَّثَ فيه ؟!.

لا شَكَّ في أنَّ هذا القولَ مردود، ليس لدينا ما يُؤَيِّدُه، بل إنَّ لدينا ما يَرُدُّه، فلقد ذكر الذين ترجموا لمعاذٍ أنه لم يُنْسَبْ إليه كتابٌ ولم يُعْرَفْ له أَثَرٌ!.

وقد نقلَ القفطيُّ عن الجَصَّاص قوله: «كان معاذ بن مسلم الهرويُّ النَّحْويُّ يبيع الهرويَّ بالكوفة.. ويصنف كتب النحو في أيام بني أمية ولم يُعْرَفْ له كتابٌ يؤثرُ عنه !»[4] وكذلك قال ابن خلكان عنه: «إنَّهُ صنف في النَّحْوِ كثيرًا ولم يظهر له شيءٌ»[5].

أمَّا كيف يتفق القولُ بأنَّهُ صَنَّفَ كتب النحو - كما نقل القفطيُّ - وأنه صَنَّفَ في النحو كثيرًا - كما ذكر ابن خلكان -وقولهما: لم يعرف له كتاب يؤثرُ عنه، ولم يظهر له شيء، فمعناه أنَّ ما كتبه لم يكن ذا بال أو ذا قيمة تُخَلِّدُه، وأُرَجِّحُ أنَّهُمْ لم يريدوا بما تناقلوه من

١-المنصف : ١٢/١ .

٢- انظر المنصف : ٧/١ .

٣-قال ابن خلكان : « توفي سنة ١٩٠، وقيل سنة ١٨٧ وهو الأصَحُّ » وفيات الأعيان ٢٢١/٥.

٤-الإنباه ٢٩٠/٣ .

٥- وفيات الأعيان ٢٢١/٥ .

أنه كان نحويًّا وأنه كتب في النحو إلا ما عُرِفَ عنه من وَلَعٍ بالتَّدريباتِ أو التَّمارينِ الصَّرْفيَّة، فهو في عصر لم يفصلوا فيه النَّحْوَ عن الصَّرْفِ أَوَّلاً، ولم يكن هو نفسه - على علمه بالعربية - بارعًا في النَّحْو ثانيًا، وقد نقل القفطيُّ أَنَّ معاذاً «كان صالحَ العلمِ بالعربيَّةِ ولكنَّهُ ليسَ من أعلامِ النَّحْويينَ»[1] ويدلُّ على ذلك أيضًا ما رواه القفطيُّ نفسه عن علي بن مسلم بن الهيثم الكوفيَّ من أنَّ أبا مسلم مؤدب عبدالملك بن مروان قد نظر في النَّحْو، فلما أحدثَ النَّاسُ التَّصْريفَ لم يحسنه، وأنكره فهجا أصحاب النحو، فأجابه معاذ الهراء أستاذ الكسائي..»[2] وقوله: «فلما أحدثَ النَّاسُ التَّصْريف» لا يعني عندي غير إكثارهم من التَّمارين الصَّرفيَّة. وأمَّا قواعدُ التَّصْريفِ فكانت معروفةً ممتزجةً بقواعد النَّحْو أو مجتمعةً معها في كتاب واحد كما هو الحال في كتاب سيبويه بل إنَّ التصريف كان كالنحو أقدم من سيبويه - وإن كان هو الذي سجَّل وألَّف وبقي مؤلَّفه وانتشر - ولم يبقَ لنا من خبرِ معاذ وعلم الصَّرْف سوى أنَّهُ رجلٌ أولعَ بالإكثارِ من المسائلِ الصَّرْفيةِ والتَّمارين على الميزانِ الصَّرْفيِّ حتى شاعَ ذلك عنه، وعُرِفَ به، ولقد روى إسحاق بن الجصَّاص أنَّ أبا مسلم مؤدِّب عبدالملك بن مروان جلس إلى معاذ الهرّاء (النَّحْوي) وسمعه يناظرُ رجلاً في النَّحْو، فقال معاذ: كيف تقول من «تؤزهم أزًّا» يا فاعل افعل، وصلْها بيا فاعل افعل من «وإذا الموءودةُ سُئِلَت»، فأجابَ الرَّجلُ معاذًا، فسمع أبو مسلم كلاماً لم يعرفه، فقام عنهم وأنشأ الأبياتَ المقدم ذكرها»[3] وهكذا وصف الرَّجل بالنَّحْوي، وليس من أعلام النُّحاة، بل هو مولعٌ بالتَّمْرينات الصَّرْفيَّة، وما هي بذاتِ قيمة عند القدماء، وإنَّما يُكْتَفَى منها بالمثالِ والمثالين - كما في كتاب سيبويه - ليُقَاسَ عليهما وتُعْرَفَ طريقةُ وزنِ الألفاظ. ولعلَّ من أوضحِ الأخبارِ دلالةً على أنَّ الإكثار من تلك التمارين لم يكن قديمًا، وأنَّهُ هو المقصود بقول علي بن مسلم: «فلما أحدثَ النَّاسُ التَّصْريف» وأنَّهُ لم يكن ذا قيمةٍ تنبئ عن علم أو تُخَلِّدُ صَاحِبَها، ما نقله الزجاجيُّ في (مجالس العلماء) عن اليزيديِّ الذي قال: لم يكن أحدٌ بالنَّحْوِ أعلمَ من أبي عمرو بن العلاء، فقال الأحمر: لم يكن أبو عمرو يعرف التَّصريف، فقال اليزيدي، ليس التَّصْريف من النَّحْو في شيء. إنَّما هو شيء ولَّدناه نحن واصطلحنا عليه، وكان أبو عمرو أنبلَ من أن ينظرَ فيما وَلَّدَ النَّاس»[4].

١- الإنباه ٣/٢٩٠ .

٢-وانظر القصة وما قاله كلٌّ منهما من شعر في الإنباه ٣/٢٩٢.

٣- الإنباه : ٣/٢٩٢ -٢٩٣ .

٤- مجالس العلماء : ١٧١ .

وهذا الذي ذكرناه من ولع الهرّاء بالتَّمارين الصَّرفيَّة هو الذي أوهم النَّاسَ أنه صاحبُ الصَّرْفِ أو رائدُ التَّصْريفِ ؛ فلقد روى السُّيوطيُّ القصَّة التي ذكرها الزُّبيديُّ في طبقاته[1] والتي هجا فيها أبو مسلم مؤدِّب عبدالملك بن مروان النَّحْويينَ لِمَا أحدثوه من تمارينِ الصَّرْف، وردَّ عليه معاذ، ثمَّ عقَّب بقوله: «قلت: ومن هنا لمحت أنَّ أوَّل من وضع التَّصْريفَ معاذ هذا..»![2].

وليس في القصة ما يوحي بأنَّ معاذاً أَوَّلُ من تحدَّث في الصَّرْف كما رأينا، ولا يَصِحُّ أن يفهم من كلام السُّيوطيِّ أكثر من أنَّ معاذاً أكثَرَ من التَّدْريباتِ أو التَّمارين الصَّرفيَّة، وأنَّ هذا المعنى نفسه هو المقصودُ بقولِ ابنِ مسلم: «فلما أحدثَ النَّاسُ التَّصْريف» وقولِ اليزيديِّ عن التَّصريف: «إنَّما هو شيءٌ وَلَّدناه نحن واصطلحنا عليه».

ولا شَكَّ في أنَّ التَّصْريفَ وما جاء منه في كتاب سيبويه هو الذي كان يعرفه العلماءُ وليس تلك المسائل والتَّمارين التي يمتحن فيها إتقان الإنسان لمعرفة الميزان الصَّرْفي بأمثلةٍ غيرِ واقعيَّةٍ والإكثار من ذلك على نحو ما كان يفعل معاذ الهرَّاء حتى عدَّ ذلك ممَّا أحدثوه وهو الذي كان أبو عمرو يترفَّعُ عنه. ونحن لا نَشُكُّ في أنَّ الصَّرفَ نشأ مع النَّحْو، لأنَّ الدَّاعيَ إليهما واحد، ولكن الصَّرْف أو التَّصْريف لم يكن معروفاً باسمٍ مستقلٍّ ولا كتابٍ مستقل.

وإذا كان اللحنُ الذي انتشر وشاع سبباً دعا إلى وضع النحو صيانة للغة القرآن وألسنة النَّاس، فمن ذا الذي يزعم أنَّ اللحن كان في حركات الإعراب وحدها ؟ إنَّ كثيراً من أمثلة الخطأ التي ذكرت في بواكير اللحن لم تكن لحناً نحويًّا بل كانت خطأً لغويًّا وصرفيًّا أيضًا، وإنَّ في كتب البيان والتبيين للجاحظ، وطبقات اللغويين والنحويين للزُّبيدي، ومراتب النحويين لأبي الطَّيِّب اللغوي، ما يدلُّ على صدق ما ذهبنا إليه[3]. ولم يكن مصطلح (التَّصريف) غائبًا، بل لقد ذكره سيبويه وقال إنَّها تسمية أطلقها عليه النَّحْوِيّون[4].

١-وهي القصة التي نقلناها في الصَّفحة السَّابقة عن الإنباه .

٢- بغية الوعاة : ٢/٢٩١ .

٣- انظر : مراتب النَّحْويين : ٨ ، والبيان والتَّبيين ٢ : ٢١٢ وما بعدها ، وطبقات الزُّبيدي : ١٥ . وانظر المعجم العربي للدكتور نصَّار ١: ٢٤ وما بعدها .

٤- الكتاب ٢ : ٣١٥ .

والتَّصْريفُ عند سيبويه شاملٌ لضوابطِ الصَّرف وللمسائل التَّدريبيَّةِ والتَّمارينِ العمليَّةِ على نحو معتدل، وهو المنهجُ الذي سار عليه فيما بعد أبو عثمان المازنيُّ في تصريفه وابنُ جنّي في (المنصف) الذي شرح فيه تصريف المازني، وبيَّنَ كيف تجري مسائل التَّدريب (١).

ولعلَّ أوضحَ ما يدلُّ على نشأة الصَّرْف المبكِّرة وعلى العمل في ميدانه واستعمال مصطلحاته ما رواه صاحب الأغاني على لسان يونس بن حبيب الذي نسب إلى عنبسة الفيل وميمون الأقرن وابن أبي إسحاق الحضرمي وعيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء أنَّهم استقروا اللغةَ العربيَّة، فوضعوا أبنية الأسماء والأفعال، فلم تشذّ عنهم زنة كلمة !. وأنَّهم ألحقوا السَّليمَ بالسَّليم، والمضاعفَ بالمضاعف، والمعتلَّ بالمعتل، والأجوفَ بالأجوف، وبناتِ الياءِ بالياء، وبناتِ الواوِ بالواو، فلم تَخْفَ عليهم كلمةٌ عربيَّة. قال أبو الفرج: «أخبرنا محمد ابن العباس اليزيديّ قال: حدثني عمي الفضل قال: حدثني إسحاق بن إبراهيم عن أبي عبيدة قال: جاء رجل إلى يونس فقالَ له: مَنْ أشعرُ الثَّلاثة؟ قال: الأخطلُ. قلنا: من الثَّلاثة ؟ قال: أي ثلاثة ذكروا فهو أشعرهم. قلنا: عمن تروي هذا ؟ قال: عن عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق الحضرمي وأبي عمرو بن العلاء وعنبسة الفيل وميمون الأقرن الذين مَاشُوا(٢) الكلام وطرقوه. أخبرنا به أحمد بن عبدالعزيز قال: قال أبو عبيدة عن يونس، فذكر مثله وزاد فيه: لا كأصحابك هؤلاء لا بدويون ولا نحويون. فقلت للرجل: سله وبأيِّ شيءٍ فضَّلوه؟ قال: بأنَّهُ كان أكثرَهم عدد طوالٍ جياد ليس فيها سَقَط ولا فُحش وأشدَّهم تهذيباً للشِّعر. فقال أبو وهب الدقاق: أما إنَّ حمَّاداً وجناداً(٣) كانا لا يفضِّلانه. فقال: وما حماد وجناد ! لا نحويان ولا بدويان ولا يبطران الكسور ولا يفصحان، وأنا أحدثك عن أبناء تسعين أو أكثر أدَّوا إلى أمثالهم، ماشوا الكلام وطرقوه حتى وضعوا أبنيته، فلم تشذّ عنهم زنة كلمة، وألحقوا السَّليم بالسَّليم، والمضاعفَ بالمضاعف، والمعتلَّ بالمعتل، والأجوفَ بالأجوف، وبناتِ

١- المنصف ١/٤٤ و ٤٥ .

٢-ماشَ الكلامَ : خَلَطَهُ . وماشَ الكرم : طلب باقي قطوفه . وقال المحقق في حاشية التحقيق إنَّ الكلمة جاءت في نسختين (ماثوا) بالثَّاء ، وهو أيضًا بمعنى خلط .. وأرى أنها أولى من ماشَ ، لأنَّ ماثَ الشيءَ: مرسه بيده حتَّى يَتَطَلَّ إلى أجزاءٍ، ويونس يريد أنَّهم تَقَرَّوا اللغة ، واستقصوا الكلام حتى لم تَغِبْ عنهم كلمة ولا خفي عليهم وزن .

٣-جناد بن واصل . من رواة الأخبار والأشعار ، ولا علم له بالعربية . كان يصحّف ويكسر الشِّعر، ولا يميز بين الأعاريض المختلفة، فيخلط بعضها ببعض . ياقوت ٧/٢٠٦.

الياءِ بالياءِ وبناتِ الواوِ بالواو، فلم تَخْفَ عليهم كلمةٌ عربيةٌ، وما علمُ حمَّاد وجناد؟»[1].

وهو نصٌّ واضحُ الدَّلالةِ على أنَّ جهوداً مبكِّرةً سابقةً بُذِلَتْ في علمِ الصَّرْف. بل لم أقف في تاريخ الصَّرف على ما هو أدلُّ على السَّبق، وأوضحُ في الدَّلالة، وأثبتُ في استعمالِ المصطلحاتِ الصَّرْفيَّة، من النَّصِّ الذي يُؤرِّخُ لمرحلةٍ مبكِّرةٍ مجهولةٍ في تاريخِ علمِ الصَّرْف. فكلُّ الذين ذكرهم يونس هم من النَّحْويين المتقدِّمين ؛ فعنبسة الفيل وميمون الأقرن من تلاميذ أبي الأسود الدؤلي المتوفَّى سنة ٦٩هـ، وابن إسحاق توفي سنة ١١٧هـ، وعيسى بن عمر توفي سنة ١٤٩هـ، وأبو عمرو بن العلاء توفي سنة ١٥٤هـ.

وإذا صَحَّتْ هذه الرِّواية، وليس لدينا ما يدفعها أو يدعو إلى دفعها، فإنها تدلُّ بوضوح على أنَّ العملَ في الصَّرْف كان معروفاً منذ أيَّام أبي الأسود وتلاميذه، وأنَّ الطَّبقةَ الأُولى من تلاميذ أبي الأسود عملت في الصَّرْفِ وتوسَّعت، وأنَّ كثيراً من المصطلحاتِ الصَّرْفيَّةِ كالسَّليم والمضاعف والمعتلّ والأجوف وبنات الياء وبنات الواو كانت متداولةً معروفة. وهذا كُلُّهُ يَتَّفِقُ وما ذكرناه من أنَّ الخوفَ على اللغةِ والحرصَ على صيانتها ووضع الضَّوابط في قواعدها لم يكن عملاً نحويًّا مقتصراً على وضع الحركات وضبط الإعراب، ولكنه كان منسجماً مع أنواع اللحن التي عُرِفَتْ وشاعت، وهي أخطاءٌ شاملةٌ لألفاظ اللغةِ وأبنيتها وحركاتِ إعرابها، الأمر الذي جعلَ عَمَلَ النَّحْويينَ الأوائل يشملُ كلَّ ما يؤدِّي إلى سلامةِ اللغة، ويساعدُ على أن ينحوَ المتحدِّث نحوها في استعمال ألفاظها ومعرفة دلالاتها وصياغة أبنيتها وحركات إعرابها. وما أرى ما جاء في كتاب سيبويه من بيان للميزان الصَّرْفيِّ وحصرٍ لحروف الزِّيادة وذكرٍ لبعضِ ضوابطِ الإعلالِ والإبدالِ وذكرٍ لأبنية الأسماء والأفعال، وإشاراتٍ إلى علل صرفيَّةٍ وقياسٍ صرفيٍّ وتدريباتٍ عمليَّةٍ صرفيَّة، إلاَّ ما رأيته في قواعد النحو التي جاءت فيه من كونها تمثل مرحلةً متأخرةً سبقتها مراحلُ في تاريخ ذلك العلم، وكان لسيبويه فضلُ الجمعِ والاستيعابِ والتَّنسيق والعرض في صياغةٍ منقطعةِ النَّظير، وأنَّهُ إذا كان (الكتاب) أَوَّلَ أَثَرٍ في علم العربية يصلُ إلينا فإنه ليس أَوَّلها واقعاً ولا زماناً[2]. وذلك كلُّهُ يردُّ ما فهمه السُّيوطيُّ أو استنتجهُ حين قال: إنَّ معاذاً الهرَّاء كانَ أَوَّلَ من تحدَّثَ في الصَّرْف[3].

١-الأغاني ٢٨٣/٨ (ط دار إحياءالتُّراث العربي بيروت : ٤١٩/٨) .

٢-انظر كتابي (النحو العربي) ص ٤٤ .

٣- انظر ما سبق في ص ٨.

ولا شك في أنَّ الذين جاؤوا بعد سيبويه أخذوا ما أورده في كتابه، فشرحوه، ووسَّعوه، وصَنَّفُوا في موضوعاته، وهي كثيرة في (الكتاب) كما رأينا. وقد عرفنا من باكورة التَّاليف في كلِّ علم من علوم العربية التي اطلعنا عليها أنَّ الرُّوَّاد الأوائل يؤلِّفون في جزئيات من تلك العلوم قبل أن يكتمل لهم التأليف في موضوعها مجموعة مستوعبة. عرفنا ذلك في الرَّسائلِ اللغويَّة، والحروفِ والأدواتِ وبعضِ الموضوعاتِ النَّحْويَّة، كما عرفناه في الصَّدْر الأوَّلِ من تاريخ التَّأليف الصَّرْفيِّ إذ رأينا المتقدِّمين من العلماء يضعون الرَّسائل والكتب في موضوعاتٍ جزئيَّةٍ ؛ فقد وضع كلٌّ من الكسائيِّ (ت١٨٩هـ) والنَّضْر ابن شميل (ت ٢٠٤هـ) كتاباً باسم (المصادر)، ووضع الرؤاسي (ت١٩٠هـ) (الإفراد والجمع) و (التَّصْغير)، ووضع الفراء (ت ٢٠٧هـ) كتاب (التصريف) و (الجمع والتثنية) و (المذكر والمؤنث) و (المقصور والممدود)، ووضع قطرب (ت بعد ٢١٠هـ) كتاب (فَعلت وأفعلت)، ووضع الجَرميُّ (ت ٢٢٥هـ) كتاب (الأبنية) و (التثنية والجمع)، ووضع ابن السكِّيت (ت ٢٤٤هـ) كتاب (القلب والإبدال). ولكننا لم نعرف قبل أبي عثمان المازني، بكر بن محمد، المتوفَّى سنة ٢٤٨هـ أحداً فَصَلَ علم الصَّرْفِ عن علم النَّحْو، وجمع موضوعاته في كتابٍ مستقلٍّ جامعٍ كما فعل المازنيُّ في كتاب (التَّصْريف) الذي شرحه ابنُ جنِّي (ت ٣٩٢هـ) في (المنصف).

وقد ذكروا أنَّ للأخفش، سعيد بن مسعدة، المتوفَّى سنة ٢١٥هـ كتاباً في التَّصْريف[١]،وأنَّ الأحمر صاحب الكسائي، المتوفَّى سنة ١٩٤هـ صَنَّف في التصريف[٢]، وكلاهما متقدِّم على المازني، ولكنَّ كتابه هو الذي بقي وشرحه ابن جنِّي وعرفناه. على أنَّ التَّأليف في موضوعاتٍ جزئيَّةٍ من الصَّرْف بقي مستمرًّا، ولم يقتصرْ على الرَّسائلِ والكتبِ التي تقدَّم ذكرها، بل كان هو الغالب على المؤلَّفاتِ الصَّرْفيَّة، فلقد ألَّف الأصمعيُّ (ت٢١٦هـ)، والقاسم بن سلَّام (ت ٢٢٤هـ)، والمفضَّل بن سلمة (٣٠٠هـ) والزجَّاج (٣١١هـ) وابن ولاَّد (ت ٣٣٢هـ) وابن درستويه (ت ٣٤٧هـ) وابن خالويه (ت ٣٧٠هـ) في «المقصور والممدود». وعرفنا رسائلَ وكتباً كثيرةً في «فعل وأفعل» و «القلب والإبدال» و «الاشتقاق» و «الألفات» و «المذكر والمؤنث» وغيرها من موضوعات الصَّرف، كما عرفنا

١- الإنباه ٢ : ٤٢ .

٢- البغية : ٤٣٣ أو ٢ : ١٥٩ .

موضوع «الأفعال» الذي ألَّف فيه ابنُ القوطيَّة (ت ٣٧٦هـ) وابنُ الحدَّاد وهو أبو عثمان المعافري السَّرقسطي (ت بعد ٤٠٠هـ)، والجرجانيُّ (ت ٤٧١هـ) صاحب كتاب (العمدة في تصريف الأفعال)، وابن القطَّاع (ت ٥١٥هـ) صاحب كتاب (أبنية الأسماء والأفعال والمصادر).

وكان لأبي عليّ الفارسيّ (ت ٣٧٧هـ) فضلٌ في علم الصَّرف لا ينكر بما جاء عنه في (التكملة)، وبما نقل عنه تلميذه ابنُ جنّي من آراءٍ نظريَّةٍ وأمثلةٍ عمليَّةٍ بَثَّها في مؤلَّفاته.

ويُعَدُّ أبو الفتح عثمان بن جنّي (ت ٣٩٢هـ) من أكبرِ علماءِ الصَّرفِ وأبرَعِهِمْ بما ثَبَّتَ من أركانِ هذا العلمِ وأقيسته، ووضَّحَ من ضوابطه وأحكامه ؛ وهو صاحب كتاب (التصريف الملوكي) وصاحب (المنصف) الذي شرح فيه تصريف المازني، وصاحب (الخصائص) و(سرّ الصناعة) و (المحتسب) وهي كتبٌ حافلةٌ بآراءِ ابنِ جنّي وآراء شيخه الصَّرفيّة.. وكانت لابن جنّي عنايةٌ خاصَّةٌ بالاشتقاق الذي جعله صغيراً وكبيراً وأكبر، وخصَّهُ برعايةٍ تميَّز بها من بين علماء الصَّرف جميعًا. وقد ذكر ياقوت لابن جني هذا التميّز فقال: «اعتنى ابن جني بالتَّصريف، فما أحد أعلم منه به، ولا أقوَم بأصوله وفروعه، ولا أحسن أحد إحسانه في تصنيفه».

يرى ابنُ جنّي أنَّ التَّصريف «يَحْتَاجُ إليه جميعُ أهلِ العربيَّة أتمَّ حاجة، وبهم إليه أشدُّ فاقة، لأنَّهُ ميزانُ العربيَّة، وبه تُعْرَفُ أصولُ كلامِ العربِ من الزَّوائدِ الداخلةِ عليها، ولا يُوصَلُ إلى معرفةِ الاشتقاقِ إلاَّ به»[١].

ويرى أنَّهُ لما كان التَّصْريف لمعرفة أنفس الكلم الثَّابتة، والنَّحْو إنَّما هو لمعرفة أَحْواله المُتَنَقِّلَة[٢]، فإنَّ «من الواجب على من أراد معرفة النَّحْو أن يبدأ بمعرفة التَّصْريف، لأنَّ معرفةَ ذاتِ الشَّيء الثَّابتة ينبغي أن تكونَ أصلاً لمعرفة حاله المتنقِّلَة. إلاَّ أنَّ هذا الضَّرْبَ من العلم لَمَّا كانَ عويصاً صعباً بدئ قبله بمعرفة النَّحْو ثمَّ جِيءَ به بعدُ ليكونَ الارتياضُ في النَّحو مُوَطِّئاً للدُّخولِ فيه ومُعِينًا على معرفةِ أغراضِهِ ومعانيه»[٣].

ويتابع ابنُ عصفور (٦٦٩هـ) ابنَ جنّي فيقول: «التَّصْريفُ أشرفُ شطري العربية

١- المنصف ١ : ٢ .

- المنصف ١ : ٤ .

٣- المنصف ١ : ٤-٥ .

وأغمضُهُمَا»[1]. ويرى مثله أيضاً أنَّ النَّحْويين قد هابوا عِلْمَ التَّصْريفِ لغموضه فلم يؤلِّف فيه منهم إلا القليل[2].

ويذكر ابنُ جنِّي كتاب المازني فيصفه، ويثني عليه، ويبيّن الدافع الذي دفعه إلى شرحه فيقول: «ولما كانَ هذا الكتابُ الذي شرعتُ في تفسيره من أَنْفَسِ كتبِ التَّصْريف وأَسدِّها وأرصَنِهَا، عريقاً في الإيجاز والاختصار، عارياً من الحشو والإكثار، متخلِّصاً من كَزَازَةِ ألفاظ المتقدِّمين، مرتفعاً عن تخليط كثير من المتأخِّرين، قليل الألفاظ كثير المعاني، عُنيت بتفسيرِ مُشْكِلِهِ وكشفِ غامضه والزِّيادةِ في شرحه»[3].

ويقول: «هذا كتابٌ أشرحُ فيه كتابَ أبي عثمان بكر بن محمدبن بَقِيَّةَ المازني، رحمه اللَّه في التَّصْريف، بتمكينِ أصولِهِ وتهذيبِ فصولِه،ولا أدعُ فيه بحولِ اللَّهِ وقُوَّتِهِ غامضاً إلاَّ شرحتُه، ولا مشكلاً إلاَّ أوضحتُه، ولا كثيراً من الأشباهِ والنَّظائرِ إلاَّ أوردتُه، ليكونَ هذا الكتابُ قائماً بنفسه، ومتقدِّماً في جنسه»[4].

والحقُّ أنَّ ابن جنِّي وفى بما وعد به من تمكينِ الأصولِ وتهذيبِ الفصولِ وشرحِ الغامضِ وحلِّ المشكل، ولم يبلغ أحدٌ في التصريف مبلغَه، وكان صاحبَ فضلٍ لا ينكر في بلوغ العلوم اللغوية عامَّةً والاشتقاق خاصَّةً ما بلغته في القرن الرَّابع للهجرة من تقدُّمٍ وازدهار.

وقد كان علينا أن نتابعَ مسيرةَ علمِ الصَّرْفِ في القرونِ التَّالية، ولكننا نرى أنَّ واحداً من علماءِ الصَّرْفِ في القرن الرَّابع يقتضي أن نقف عنده إذ لم يأخذ حظَّه من الشُّهرة ولا من كتابة الكتَّاب والباحثين وهو القاسم بن محمد بن سعيد المؤدِّب صاحب كتاب (دقائق التصريف). ولسنا ندري سنة وفاة المؤدِّب ولكنه صرَّح في نهاية كتابه أَنَّهُ فرغ منه سنة ٣٣٨هـ. وهو مثل كثيرين من الشُّعراء والعلماء الذين لحقتهم محنة معاصرة الفحول فخبت شهرتهم، كما خبت شهرة الشُّعراء الذين عاصروا جريراً والفرزدقَ والأخطل، والذين عاصروا أبا تمَّام والبحتري والمتنبي والمعرّي، والنُّحاة الذي عاصروا الفارسيَّ وابن

١- الممتع : ٢٧ .

٢- الممتع : ٢٢ .

٣-المنصف : ٥ .

٤- المنصف : ١ .

جنّي، ولم تذع أخبارهم وتنشر آثارهم إلا بعدَ انقضاءِ عصرهم، وخفوت الجلبةِ التي أثارتها أصواتُ الفحولِ في عصرهم.

لقد وضع المؤدّبُ كتابه في (دقائق التَّصْريف) وذكر فيه العلل الصَّرفيَّة، ونقل عن السَّابقين من علماء اللغة حججهم،وساقَ أقوالَ الخليل والرّؤاسي وسيبويه والكسائي والفراء والأصمعي وابن السِّكّيت والسّجستاني وغيرهم، وحشد فيه الكثير من الشّواهد القرآنية واللهجات العربية وأبيات الشعر.

وقد رأيت في (دقائق التَّصْريف) [1] نمطاً فريداً في التَّأليف الصَّرفيّ منهجاً وشاهداً ومصطلحاً. يظهر ذلك في ترتيبه للموضوعات الصَّرفية –وقد استطرد في كثير منها إلى الحديث في النَّحْو وأحكامه – كما يظهر في تفردّه بذكر شواهد لم نعرفها عند غيره، وتفرّده باستعمالِ مصطلحاتٍ لم نرها عند غيره! أو كانت وليدة عصره ولكنَّها لم تنشر فتشهر، وشاع غيرها فاشتهر.

فمن مصطلحاته قوله (النَّصْبة) بدل (الفتحة). قال: «إذا أخبرت عن الرَّجل بالفعلِ الماضي قلت: فَعَل، بنصب الفاء.. وآثرت النَّصبةَ لأنَّها عندهم أَخَفُّ الحركات. ونصبت العين ليتصرّف الصَّرف على وجوهه»[2]، و«تقولُ في الاستفهام: هَلْ عِنْدَكَ مَاءٌ فَنَشْرَبَهُ ؟ نصبت الباء، لأنَّهُ جوابٌ للاستفهام بالفاء»[3].

وقال: «نُصِبَ آخرُ الماضي لخروجه من الوصف، ووصفه الحادثة التي تلزمُ أوله، وذلك أنَّ للأسماءِ أوصافاً تكونُ الأسماءُ مرتفعةً بها، فكذلك للأفعال أوصاف ترتفعُ هي بها»[4].

وانظر إلى استعماله (الوصف والحادثة).

ومن مصطلحاته أنَّ الفعل الماضي ثلاثة أنواع هي:النَّصّ والمثل والرَّاهن.

– «فالنصّ ما وافق لفظه لفظ الماضي ومعناه معناه.

١– صدر الكتاب عن المجمع العلمي العراقي سنة ١٤٠٧هـ و ١٩٨٧م بتحقيق د. أحمد ناجي القيسي و د. حاتم صالح الضامن و د. حسين تورال .

وأعاد الدكتور حاتم صالح الضامن تحقيقه منفرداً ، ودفعه إلى المطبعة ولمّا يصدر .

٢– دقائق التصريف : ١٥ .

٣– دقائق التصريف : ٣٥ .

٤– دقائق التصريف : ١٧ .

-والممثل ما كان لفظه لفظ الماضي ومعناه لمستقبل الزمان ومستأنفه»[١].

- «والرَّاهن المقيمُ على حالةٍ واحدة»[٢].

وقال أيضا: «ويسمَّى الماضي ماضيًا، وواجباً وعائراً ومُعَرًّى.

وسمّي ماضياً لأنه مفروغ منه، ولوقوعه في الزَّمان الماضي، وسُمِّي واجباً لأنه وجب، أي: سقط وفرغ منه ؛ مأخوذ من قولهم: وجب علينا الحائط، إذا سقط، ووجبت الشمس غابت، وقد يجوز أن يكون مأخوذاً من قولهم: وجب البيع، إذا تمَّ وانعقد.

وسمّي عائراً لأنه عار، أي: ذهب. ومنه قيل لحمار الوحش عَيْر، لركوب رَأْسه ذاهباً في الفلاة يمنةً ويسرة. وقيل للفرس إذا كان على هذا المثال: عيَّار.

وسمّي معرًّى لأنه عُرِّي من الحروف العوامل والزوائد والحوادث والكواسي»[٣].

ويستعمل المؤدّب أيضاً تعبير (الغابر) و (ألف العبارة)[٤].

و(الملتوي) وهو الذي التوى حرفاه المعتلَّان بحرف صحيح[٥] .

و(الموائي) من: وأى يئي إذا وعد، وسمّي الموائي من لفظه، كما سميّت القطاة من لفظها[٦].

و (المفكوك)، وسمّي مفكوكًا، لأنه فُكّ بين الحرفين المتجانسين بحرف يخالفهما مثل: قلق وسلس[٧].

ويستعمل (الصَّحيح) و (السَّقيم) وغير ذلك من المصطلحات.

وليس كتاب (دقائق التصريف) للمؤدب سوى واحد من كتب صرفيّة لا تزال مخطوطةً يتحاماها المحققون، أو مفقودةً لم تصل إلينا إلاّ أسماؤها مذكورة في كتب التراجم والطبقات عند ذكر مؤلفيها.

١-دقائق التصريف : ١٧ .

٢-دقائق التصريف : ١٩ .

٣- دقائق التصريف : ٢٦-٢٧ .

٤- دقائق التصريف : ١٠١ .

٥- دقائق التصريف : ٣٤٦ .

٦-دقائق التصريف : ٣٥٤ .

٧- دقائق التصريف : ٣٥٩ .

كما أنَّ المؤلفاتِ النَّحْويَّةَ التي عرفناها بقيت عند جمهور المؤلفين تمزجُ الصرف بالنحو على نحو ما وجدوا في كتاب سيبويه. وهكذا عرف التَّأليف في الصَّرف ثلاثةَ مناهج:

أوَّلها: منهج يحاول استيعاب موضوعات الصرف ممتزجةً أو ملحقةً بموضوعات النحو، كما في كتاب سيبويه وشرح المفصّل لابن يعيش، والتسهيل لابن مالك، وأوضح المسالك لابن هشام وهمع الهوامع للسيوطي، وشرح الأشموني وحاشية الصبّان.

وثانيها: منهج يقوم على التأليف في موضوع جزئيّ من موضوعات علم الصَّرف، على نحو ما عرفناه في الرَّسائل والكتب الصَّرفيَّة التي وضعها الزَّجَّاج وابن السَّرَّاج وابن درستويه وابن سيده وغيرهم ممن سبق ذكرهم.

وثالثها: منهج المازنيّ في فصل الصَّرف عن النَّحْو، واستيعاب موضوعاته في كتابٍ مستقلٍّ على نحو ما سار ابن جنّي في (المنصف)، والميداني (ت ٥١٨هـ) في (نزهة الطَّرْف في علم الصَّرْف)، وابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) في شرحه للتصريف الملوكي لابن جنّي، وابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ) صاحب (الشافية) التي شرحها الزنجاني إبراهيم بن عبد الوهاب (ت ٦٥٥هـ) صاحب (العزّي) في التصريف، كما شرحها الاستراباديان رضي الدين، وركن الدين، والجاربردي أحمد بن الحسن (ت ٧٤٦هـ) وابن هشام (ت ٧٦١هـ) صاحب المغني، وسمّى شرحه (عمدة الطالب في تحقيق صرف ابن الحاجب)، وعبدالله بن محمد المعروف بنقره كار (ت ٧٧٦هـ) والشيخ زكريا الأنصاري (ت٩٢٦هـ) في (المناهج الكافية في شرح الشافية).

وكان من أبرز الذين عُنوا بالصَّرْفِ وألَّفوا فيه ابن عصفور (ت٦٦٩هـ) صاحب كتاب (الممتع في التصريف) الذي قال عنه أبو حيان: «إنَّهُ أحسنُ ما وضعه المتأخرون في علم الصَّرْف» وبلغ بأبي حيان إعجابه بالممتع ما جعله يقوم باختصاره، ويسمي مختصره (المبدع). وقد كان موقف أبي حيان الأندلسي من ابن عصفور شبيهاً بموقف ابن جنّي من المازني، فلقد ذكر أبو حيان (الممتع) وأثنى عليه، وبيَّنَ الدَّافعَ إلى تلخيصه فقال: «ولمَّا كانَ كتابُ الممتعِ أحسنَ ما وُضِعَ في هذا الفنِّ ترتيبًا، وألخَصَهُ تهذيباً وأجمَعَهُ تقسيمًا، وأقرَبَهُ تفهيمًا، قصدنا في هذه الأوراق ذكر ما تضمنه من الأحكام بألخصِ عبارة، وأبدعِ إشارة.. وسميته: المُبدِع المُلخَّص من المُمتِع»[1].

١-المبدع: ٤٦ - ٤٧.

ومع ذلك، فلن تعدم الحسناء ذَامًا[1]، فقد تَعَقَّبَ ابنُ هشام الخضراوي محمد بن يحيى (٦٤٦هـ) كتاب المتع، وردّ على ابن عصفور في كتاب سَمَّاه (النقض على المتع) كما ذكر السُّيوطيُّ في (البغية).

وكان من الذين ألَّفُوا في الصرف ابن مالك (ت ٦٧٢هـ) صاحب الألفية، فقد وضع (إيجاز التعريف في علم التصريف)، ونظم (لامية الأفعال) التي اشتهرت وكثرت شروحها.

وظهرت للمتأخرين كتبٌ صغيرةٌ أو مدرسية تختصر المطولات من أشهرها (شذا العَرْفِ في فَنِّ الصَّرْف) للشيخ أحمد الحَمَلاوي (ت ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م).

وبقيت معظمُ كتبِ النَّحْوِ سائرةً على منهج سيبويه في مزج النَّحْوِ بالصَّرْفِ على نحو ما رأينا في حديثنا عن المنهج الأوَّل [2].

الخاتمة

نتائج البحث:

يمكن تلخيص نتائج البحث في الأمور الآتية:

١- ارتبطت نشأةُ علمِ الصَّرفِ بنشأةِ علمِ النَّحو، وكانا معًا يُشكِّلانِ علم العربيَّة.

٢- بدأت بواكيرُ العملِ الصَّرفيِّ على يد رجال الطَّبقة الأولى من أصحاب أبي الأسود الدُّؤلي، ووضعت تلك الطَّبقة مصطلحاتٍ صرفيَّةً مازالت مستعملةً إلى اليوم.

٣- لم يكن لمعاذ الهراءِ أثرٌ في وضعِ علم الصَّرف بله أن يكون واضعه. وقد أوهم وَلَعُهُ بالتَّمارينِ الصَّرفيَّةِ النَّاسَ أنَّهُ صاحبُ الصَّرف أو رائدُ التَّصريف.

٤- صَنَّفَ البحثُ مناهجَ التَّأليف الصَّرفي الذي كان حينًا ممتزجًا بموضوعات علم النحو، وحينًا آخر مستقلاً عنها، وبَيَّنَ أنَّ من المؤلفات النحوية ما استوعب موضوعات الصرف كلَّها، ومنها ما كان يضمُّ موضوعات صرفية أُلحقت بموضوعات النحو.

٥- يُعَدُّ ابن جِنِّيٍّ من أبرعِ علماءِ الصَّرفِ وأكبرهم بما ثبَّتَ من أركان هذا العلم وأقيسته، ووضَّح من ضوابطه وأحكامه، كما يُعَدُّ كتاب (دقائق التصريف) للمؤدِّب نمطًا فريدًا في التَّأليف الصرفي منهجًا وشاهدًا ومصطلحًا.

١- الذام: بتشديد الذال وتخفيف الميم: العيب. لسان العرب (ذمم).

٢- انظر ما تقدم في ص ٣١٠.

المصادر والمراجع

١- الأغاني للأصفهاني . ط مصوّرة عن طبعة دار الكتب . مؤسسة جمال للطباعة والنشر - بيروت .

٢- إنباه الرواة للقفطي . تح : أبي الفضل إبراهيم . ط مصوّرة - دار الفكر العربي بالقاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٦ و ١٩٨٦م .

٣- بغية الوعاة للسيوطي. تح : أبي الفضل إبراهيم . القاهرة ١٣٨٤هـ و ١٩٦٤م .

٤-البيان والتبيين للجاحظ. تح: عبدالسلام هارون. القاهرة ١٣٦٧هـ و ١٩٤٨م .

٥- تهذيب ابن عساكر . بدران . دمشق ١٣٥١هـ .

٦- دقائق التصريف لابن المؤدّب. تح : د. أحمد ناجي القيسي و د. حاتم صالح الضامن و د. حسين تورال . ط المجمع العلمي العراقي . بغداد ١٤٠٧هـ و ١٩٨٧م .

٧- شرح الشافية للرضي الاستراباذي . تح : محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد . دار الفكر العربي -القاهرة ١٣٩٥هـ و ١٩٧٥م .

٨- الصَّاحبي في فقه اللغة لابن فارس . تح : السَّيد أحمد صقر - القاهرة .

٩- طبقات النحويين واللغويين للزُّبيدي . تح : أبي الفضل إبراهيم . القاهرة ١٩٩٥م .

١٠ - الفهرست لابن النديم . القاهرة ١٣٨٤هـ .

١١- الكتاب لسيبويه . تح :عبدالسلام هارون .القاهرة ١٤٠٢هـ و ١٩٨٢م .

١٢- المبدع في التصريف لأبي حيَّان الأندلسي. تح : عبدالحميد سيد طلب . دار العروبة الكويت ١٤٠٢هـ و ١٩٨٢م .

١٣- مجالس العلماء للزجاجي . تح : عبدالسلام هارون .

١٤- مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي . ط٢ دار الفكر العربي . القاهرة ١٩٧٤م .

١٥- معجم الأدباء لياقوت . ط٣ . دار الفكر ١٤٠٠هـ و ١٩٨٠م .

١٦- المعجم العربي : د. حسين نصّار . مصر ١٣٧٥هـ و ١٩٥٦م .

١٧-الممتع في التصريف لابن عصفور . تح : د.فخر الدين قباوة . دار الأفاق الجديدة . بيروت ١٣٩٩هـ و ١٩٧٩م .

١٨- المنصف لابن جني . تح : إبراهيم مصطفى وعبدالله أمين . مصر ١٣٧٣هـ و ١٩٥٤م.

١٩- النحو العربي - العلّة النحوية نشأتها وتطورها . د. مازن المبارك . ط٣ دار الفكر - بيروت ١٤٠١هـ و ١٩٨١م .

٢٠- نزهة الألباء لأبي البركات الأنباري . مصر ١٢٩٤هـ .

٢١- وفيات الأعيان لابن خلكان . تح : د. إحسان عباس - بيروت ١٣٩٧هـ و ١٩٧٧م .